في سياسة الصحة

دور حضارتنا في تعزيز الصحة في عالمنا

كيف السبيل للحفاظ على «الصحة» في عالمنا المعاصر على المستويين الفردي والجماعي؟

ما أكثر ما برز هذا السؤال أمامي وأنا أواجه «ضغوطات» يومية متصلة بحياتنا المعاصرة، لا تختفي نهاراً أو ليلاً. ولقد أمضيتُ أوقاتاً وأنا أتأمل في السؤال وأتفكر في الجواب، وكان العقل يصل بي إلى حاجتنا الماسة ونحن نتصدى لما يهدد الصحة أن ننطلق من نظرة كونية، وأن نبذل جهوداً فردية وجماعية، وأن نستعين بالوازع الديني ووازع السلطان، وأن نصل من خلال ذلك كله إلى تحكم ذوق عام منسجم مع الفطرة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها. ونحن حين نتحدث عن هذه الضغوطات اليومية التي نواجهها يتبادر إلى الذهن تلوث الهواء الذي نستنشقه وتلوث البيئة بعامة، والضوضاء التي لا ترحم وأعداد لا تحصى من السيارات تهدر محركاتها ناهيك عن أبواقها التي تنطلق بدون عقل يكبحها، ونظام حياة يومي يشد الأعصاب، وغير ذلك كثير.

كان طبيعياً وهذا السؤال يلح علي أن أتحمس للدعوة الكريمة التي وصلتني من «منظمة الصحة العالمية المكتب الإقليمي لشرق البحر المتوسط» للمشاركة في ندوة «أنماط الحياة الإسلامية ودورها في التنمية الصحية وتنمية الإنسان بوجه عام». وقد زاد من حماسي أنني لمست في رسالة الدعوة توافر النظرة الكونية، فالندوة التي تنعقد في إطار حملة منظمة الصحة العالمية «الشاملة من أجل تحقيق الصحة للجميع سنة ألفين بمشيئة الله» تولي أنماط الحياة الاهتمام وتتوجه إلى الفرد والمجتمع لتغيير

أنماط الحياة السيئة والاتجاه بها نحو الأنماط الفاضلة، مدركة أن قيام المجتمع بالتغيير يتطلب بداية إقناعه بضرورته وتوضيح سبيله وكيفيته.

انعقدت هذه الندوة في عمّان بين يومي ٢٢ و٢٦ حزيران يونيو ١٩٨٩، في أعقاب انعقاد المؤتمر السابع للمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية الذي شارك في الدعوة إليها مع المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية. وشارك فيها نخبة من الأطباء والعلميين، والفقهاء والدعاة، والتربويين والمفكرين، والاقتصاديين والاجتماعيين، والكُتّاب والصحفيين، وممثلين عن المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية وعن منظمة الصحة العالمية. وقد تميزت بسوية الحوار العالية الذي جرى فيها بفضل علم المشاركين وتكامل اختصاصاتهم والإعداد الممتاز الذي قام به موجهو الدعوة، بما في ذلك الأوراق العلمية التي طُلب إلى عدد من المختصين تقديمها لتكون بمثابة أوراق عمل ينطلق منها الحوار ويستنير بها.

ما هو المقصود بأنماط الحياة الإسلامية التي جاء ذكرها في عنوان الندوة؟ ولماذا جرى استخدام صيغة الجمع فيها؟

سألتُ نفسي هذا السؤال جرياً على عادتي في البدء بتحديد مفاهيم المصطلحات المستخدمة في أي بحث علمي. والنمط في لساننا العربي هو «الطريقة» والضرب من الضروب والنوع من الأنواع، وهو يعني أيضاً «جماعة من الناس أمرهم واحد». وقد كفاني أخي د. محمد هيثم الخياط مؤونة الاسترسال في تحديد مفهوم نمط الحياة حين قدم في بداية الندوة عرضاً تضمن المصطلحات المستخدمة مع تحديد دقيق لمفاهيمها ختمه بالوقوف أمام مصطلح «أنماط الحياة» التي هي «العادات الشخصية أو الأنماط السلوكية التي داوم عليها المرء مدة طويلة». وقد مهّد لهذا التعريف بكلمة لأحد أسلافنا العلماء علي بن العبّاس هي قوله «ينبغي أن يستعان في سائر أبواب حفظ الصحة بالنظر في العادات، إذ كان النظر فيها باباً كبيراً في حفظ الصحة ومداواة الأمراض؛ لأنها إذا طالت مدتها صارت كالشيء

الطبيعي . . » وبدا واضحاً من كلمات افتتاح الندوة ومن عرض د. الخياط وعرض أخي د. محمد الهواري في الجلسة الأولى أن إخوتنا القائمين على المكتب الإقليمي لشرق المتوسط في منظمة الصحة العالمية وعلى المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية قد قطعوا شوطاً في «تأصيل» مفاهيم الصحة التي تستخدم في عالمنا المعاصر و«إغنائها» مجسدين عملياً كيفية إسهام حضارتنا العربية الإسلامية في حضارة العصر. فالصحة في منظورنا الحضاري «ليست مجرد انعدام المرض أو العجز، وإنما هي حالة من المعافاة الكاملة بدنياً ونفسياً واجتماعياً». وهذا التعريف يتجاوز العبارات السلبية إلى العبارات الإيجابية فتصبح المعافاة «هي حال للبدن يتم بها الأفعال في المجرى الطبيعي» كما قال علي بن العبّاس، وتكون الصحة «هي اعتدال البدن». وينطلق هذا الاعتدال من نظرة كونية توفرها العقيدة ويصوغها الدين نجدها في استهلال سورة الرحمن ﴿**والسماء رفعها ووضع الميزان. ألا تطغوا في الميزان. وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان**﴾. فلا طغيان ولا خسران. ومن هذه النظرة يتحدد مفهوم الميزان الصحي بأنه «المحافظة على التوازن البدني والنفسي والاجتماعي لأي فرد أو مجموعة». وما زلت أذكر روعة الحوار الذي دار في الندوة من وحي آيات سورة الرحمن. ولكم أسعدني أن وجدت أوراق العمل وهي تطرح نمط الحياة الإيجابي من منظور الإسلام، تعود إلى التعبيرات القرآنية مثل تعبير الفطرة الذي يعني «الشق والابتداء والاختراع» ويحمل ومضات وإشارات عن خلق الإنسان وتكوينه الحيوي.

لقد بحثت الندوة بتعمق أحوال الإنسان الصحية في عالمنا المعاصر على مستويات البيئة والمجتمع والأسرة والفرد. وتجلى من خلال البحث بوضوح أن الأخطار التي تهدد هذه الأحوال الصحية متنوعة وكثيرة وشديدة، وأن الضغوطات التي يواجهها الإنسان بفعل ذلك قوية ومتصلة. فعلى مستوى البيئة مثلاً نحن نعيش في عصر نمو المدن وتزايد السكان والإفراط في الاستهلاك واستنزاف الموارد أو تخريبها وتحويلها. وقد عرفنا تلوث الهواء والماءالمشروب والأغذية والتربة. وعلى

مستويات المجتمع والأسرة والفرد هناك ظواهر مقلقة تفعل فعلها في تهديد صحة الفرد والمجتمع، ولا يتسع المجال لتفصيل الحديث عنها.

تدرج البحث في الندوة بعد الإحاطة بهذه الأخطار على مراحل ثلاث. فانصب الجهد أولاً على «حصر أنماط الحياة الإسلامية في شتى المجالات، وتأصيل نسبتها للإسلام عن طريق الدليل القرآني والحديث النبوي». ثم تركز على «استقراء المصالح المجتلبة والمفاسد المدفوعة باتباع تلك الأنماط في مجالات صحة النفس والجسم وسلامة العلائق الاجتماعية والإنسانية سواء بالنسبة للفرد أو الأسرة أو المجتمع أو البشرية عامة». ثم تحول إلى «وضع خطة عمل أو أكثر للدخول بذلك أو ببعض منه إلى حوزة التطبيق المدروس برهاناً على أثره، وبداية لإصلاح الحياة على هداه».

بيَّن جماع هذا البحث في مراحله الثلاث على مدى أيام الندوة الأربعة «أن الإيمان بالله هو الأساس والمرتكز في أنماط الحياة، والمحور الذي تدور حوله وتنبثق إيجابيات لا حصر لها في كل مجالات الحياة». فهذا الإيمان هو الذي يوفر للفرد والمجتمع النظرة الكونية، وهو الذي يربط بين الإنسان وبيئته في كوكبنا الأرضي، وبين الأرض التي منها خلقنا الله وإليها يعيدنا ومنها يخرجنا تارة أخرى وهذا الكون الفسيح، وبين الإنسان وأخيه الإنسان في أسرته ومجتمعه، وبين الإنسان ونفسه وجسمه وعقله وروحه. وقد سجلت الندوة هذه الحقيقة في الإعلان الذي صدر عنها باسم «إعلان عمان لتعزيز الصحة» في بنده السابع بعد أن ضمنتها بيانها. ويقول هذا البند «الإسلام كما يعرفه القرآن هو الفطرة التي فطر الله الناس عليها. فالالتزام بأنماط الحياة الإسلامية هو تحقيق لطبيعة الإنسان الأصيلة، وانسجام مع سنن الله في الجسم والنفس، وفي الفرد والأسرة والمجتمع، وفي الإنسان وبيئته. كما ذكّر الإعلان في بنده الأول بمضمون الحديث الشريف الذي يقرر أن «الصحة نعمة من الله، ومغبون فيها كثير من الناس». وقد حكمت النظرة الشاملة رؤية العلاقة بين الصحة وعناصر الحياة الأخرى، فهي «لا تكتمل إلا بتوافر العناصر الرئيسية الأخرى

مثـل الحـرية، والأمن، والعـدالـة، والتعليم، والعمـل، والكفـاية، والمـأكـل، والمشرب، والملبس، والمسكن، والزواج، وصحة البيئة». كما أثبت الإعلان في بنده الثالث.

دار الحـوار غنياً شيقـاً في لجـان الندوة الأربع حول أنماط الحياة الإسـلامية المستخرجة من القرآن والسُنّة. وانتهى إلى وضع خطوط وثيقة تعد للإلحاق بإعلان عمّان لتعزيز الصحة. وأذكر أنني وقفت طويلاً أمام شمول هذه الأنماط بحيث لا يكاد يوجد سلوك إنساني لم يتصل به توجيه قرآني أو نبوي. وتداعى إلى خاطري كيف استجاب أطفالنا لهذه الأنماط حين ربطناها بتلك التوجيهات، وكانت أم البنين حريصة على ذكر النص القرآني أو الأثر النبوي بشأن كل سلوك. وطاب لي وأنا أتابع الحوار أن أصنّف الأنماط. وقد بدأت بهذا الإنسان المخلوق من طين من صلصال من حمأ مسنون من أمنا الأرض وبيئته، ثم تتبعته وهو ينشأ في أسرة مذ هو جنين في بطن أمه، ثم وهو يعيش وسط مجتمع، ثم وهو يتعامل مع نفسه. وسرني أن أجد جاري الدكتور أحمد عروة من الجزائر وقد صنّف عوامل البيئة الحياتية من ماء وهواء ومسكن وغـذاء وحيوانـات ومؤذيات، وعـوامل البيئة الاجتماعية من اقتصاد وأسرة ومعـامـلات وحكم ومؤسسـات، والعـوامل الذاتية من نسل وحمل وطفولة وتغذية ورياضـة، والعـوامـل العقيدية من عبادات وأخلاق نفسية وسلوك وأخلاق وعقيدة. وتتفاعل هذه العوامل معاً لتؤثر على الصحة الجسمية والنفسية والأخلاقية والدولية.

ما أكثر ما يمكن عمله للحفاظ على الصحة وتعزيزها. وقد دعت الندوة المعنيين إلى العمل على تعزيز الصحة من خلال تشجيع أنماط الحياة الإيجابية. وأذكر أنني سلّطت الأضواء على آلية هذا العمل الذي يجب أن ينتقل من الإقنـاع إلى التشريع بعد أن يتحقق الاقتناع. وإذا كان الوازع الديني بالغ الأهمية في الإقناع فإن وازع السلطان ضروري لتطبيق التشريع، ولا بد من المحاسبة والثواب والعقاب كي نصل إلى تحكم الذوق العام الذي يحاصر الضغوطات ويقضي عليها، وينسجم مع الفطرة.

نضرب مثلاً على هذه الآلية في معالجة الضوضاء في المدن، وقد بلغت في بلادنا حداً تجاوز طاقة احتمال أعصاب الإنسان. ويمكن لأي منّا يسكن على شارع رئيسي في مدينة كالقاهرة أن يعاني من هدير صوت «المترو» الذي يسير فوق الأرض، ومن جعيره حين يُطلق بوقاً بالغ الإزعاج، ومن أبواق شاحنات وحافلات عامة وسيارات صغيرة خاصة، ومن مكبرات صوت تنطلق هنا وهناك في فرح أو ترح أو نداء. ولا تكف هذا الضوضاء ليلاً أو نهاراً، وتسهم فيها عادات قبيحة مثل استخدام البوق للنداء من وراء الحجرات أو لدعوة المارين لركوب سيارة الأجرة أو عند كل تقاطع. ولا بد أن يبدأ العمل لإنقاذ الناس من هذه الضوضاء من الإحاطة بالمشكلة، ثم يباشر عملية توعية واسعة بأخطار هذه الضوضاء على أعصاب الناس تستخدم فيها جميع وسائل الاتصال الجماهيرية، ثم يصدر التشريع الذي يعالج المشكلة من جذورها، فيفرض على صانعي السيارات مثلاً أن لا يضعوا فيها أبواقاً تصدر أصواتاً مؤذية، ويفرض على كل من يحصل على رخصة قيادة أن يتعهد بعدم إزعاج الآخرين بإطلاق صوت البوق، ويوقع القانون عقوبة على كل مخالف، ويتكاتف المجتمع للدفاع عن الذوق العام فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر الذي هو استخدام المنبه بطريقة غير لائقة. ولا بد من أن تتضمن عملية التوعية مخاطبة البُعد الروحي وتحريك الوازع الديني فيسود غضُّ الصوت ويحدث الكف عن النداء من وراء الحجرات وطبيعي أن تقدم أماكن العبادة من مساجد وكنائس القدوة فلا تستخدم فيها المكبرات بطريقة خاطئة.

إن الاهتمام بآلية العمل ضروري لإنجاح جهود تعزيز الصحة. وقد استطاعت ندوة أنماط الحياة الإسلامية أن تقدم أفكاراً حيوية حول سبيل الحفاظ على الصحة في عالمنا المعاصر، بعد أن جاءت «تلبية للحاجة الملحة إلى صياغات الرسالات الصحية إلى أبناء إقليم شرق البحر المتوسط باللغة التي يفهمونها والاستفادة من الروح الإيمانية التي تصبغ مواطنيه وتجعل من الدين مرجعاً ومحركاً لحياتهم».

الفقه الطبي وأخلاق التطبيب

مجموعة أخبار تناقلتها وكالات الأنباء في عالمنا حول جرائم اقترفت على صعيد استخدام التقنيات الحديثة في عالم الطب، تطرح مرة أخرى وبإلحاح موضوع «الفقه الطبي» و«أخلاق التطبيب»، ليكون في بؤرة اهتمام الرأي العام في أوسع دوائره، ولنصل فيه إلى ما يحول دون إساءة استخدام التقدم الذي تحقق في ميدان العلم الطبي.

كان من بين هذه الأخبار خبر العثور على طفلة لبنانية بأحد الأحياء الشعبية البيروتية في حالة إعياء شديد، ومعها مبلغ من المال، وتبيَّن أنها تعرضت لإجراء عملية في جانبها الأيمن تم خلالها استئصال كليتها اليمنى. وخبر آخر من لبنان عن أطفال وجدوا مقتولين في ظروف غامضة، وعند تشريح جثثهم تبين أنهم فقدوا أعضاء حيوية من أجسامهم وقطعاً إثر إجراء عمليات لهم. وخبر من أمريكا اللاتينية عن امرأة وضعت مسخاً له رأس كلب بعد أن أُجريت لها عملية إخصاب استخدمت فيه عن طريق الخطأ نطفة كلب. وقد تتالت هذه الأخبار علينا في الأسبوع الأول من شهر كانون أول ديسمبر ١٩٨٩.

أخبار أخرى كثيرة يجري تداولها في دوائر الخاصة من أطباء وفقهاء وعلماء تتصل بهذا الموضوع تؤكد على أهميته وإلحاحه وتدعو إلى تناوله.

إن الحديث في موضوع الفقه الطبي وأخلاقيات التطبيب متصل بالسياسة في مفهومها الواسع لأنه أمر يهم الاجتماعي الإنساني. والسياسة في لساننا العربي «هي القيام على الشيء بما يصلحه». وهي كمصطلح في حضارتنا «استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجي في الدنيا والآخرة» و«القانون الموضوع لرعاية الآداب والمصالح وانتظام الأحوال. فمفهومها أخلاقي يربط بين الدنيا العاجلة والآخرة الآجلة وظاهر الإنسان وباطنه، وعملي منطلق من حقيقة «أن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن». وقد عرضت للحديث عنها في كتابي «مدرسة عربية في علم السياسة».

زاد اهتمامي بأمر «السياسة الصحية» بعد أن ناقشت أكاديمية المملكة المغربية التي أشرف بعضويتها موضوع «الالتزامات الدينية والخلقية في تقنيات الإنجاب» قبل ثلاث سنوات. وكم سعدت بمشاركتي في ندوة «أنماط الحياة الصحية في حضارتنا العربية الإسلامية» التي انعقدت بعمّان في صيف ١٩٨٩ بدعوة من المكتب الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية ومؤسسة آل البيت، وقد تناولتها بالحديث في مقال. وحين وصلتني الدعوة الكريمة للمشاركة في الندوة الفقهية الخامسة من سلسلة ندوات «الإسلام والمشكلات الطبية المعاصرة» التي تنظمها المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية ومجمع الفقه الإسلامي، لم يكن غريباً أن أجد نفسي متحمساً لتلبيتها، ومشاركة زملاء علماء من أهل الفقه والطب في بحث فقهي طبي من موقعي كمختص في الدراسات التاريخية والمستقبلية معنيٍّ بأمور الفكر والسياسة.

جرى تخصيص هذه الندوة لمواضيع ثلاث هي «زراعة خلايا المخ والجهاز العصبي»، «ومدى الاستفادة من المولود اللادماغي والأجنة المجهضة»، «ونقل بعض الأجهزة التناسلية». وتميزت هذه الندوة بأنها جاءت ثمرة للتعاون بين المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية والمجمع الفقهي لمنظمة المؤتمر الإسلامي وفقاً لميثاق تعاون موقع بينهما، يضع نُصب عينه موضوع «الفقه الطبي» والخروج بآراء فقهية موحدة ولقد استمعت بإمعان إلى مضيفنا الأخ الدكتور عبد الرحمن العوضي وهو يشرح في افتتاح الندوة أهمية الفقه الطبي «الذي يخص الإنسان في أعز مقوماته»، ويلاحظ أن البعض في عالم الغرب فصل العلم عن الحكمة، وأن البعض في العالم الإسلامي أفتى في كثير من الأمور دون أن يتبين الحقيقة العلمية فجاءت فتاواه في معظم الأحيان قاصرة مبتورة، ثم يوضح «أن اهتمامنا بالحلال والحرام ليس بدعة ولا مضيعة للوقت، ولا تبديداً للجهد ولكنه فرض عين على علماء الأمة الإسلامية لأنه يمس كيان الإنسان من حيث هو إنسان»، ويستشهد بقول الإمام الغزالي «ينبغي على العلماء أن يتصدوا لدعوة الناس ليميزوا بين ما يضرهم وما ينفعهم وما يشقيهم وما

يسعدهم». واستزدت طيلة أيام الندوة من علم أمين عام المجمع الفقهي الشيخ الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة، الأخ الكبير والزميل في أكثر من مجمع يضمنا الذي يقوم بدور متميز في نهضتنا الفقهية، ونحن نتجاذب أطراف الحديث حول الموضوع.

إن لنا كي ندرك الصلة بين الطب والفقه أن نتابع ما يجري على صعيد استخدام التقنيات الحديثة في عالم الطب. ومن أمثلة ذلك «اكتشاف بعض العلماء مؤخراً أن لبعض أنسجة الجنين فوائد علاجية مباشرة في بعض الأمراض، فإذا ما وضع النسيج العصبي الذي يكون قشرة الغدة الكظرية في مكان معين من مخ مريض بمرض باركنسون، فإنَّ المادة التي يفرزها هذا النسيج تجبر نقصاً وتصلح خللاً وتفضي إلى انحسار أعراض المرض وإطالة معدل حياة المريض» كما شرح الطبيب الأديب الفقيه الأخ الدكتور حسان حتحوت، الذي مضى قائلاً «وإلى هنا يبدو في ظاهر الأمر أن الموضوع لا يعدو أن يكون نوعاً من زراعة الاعضاء وأنه لذلك أهل للرضى من أهل الشريعة ومن غيرها على السواء. وكاد ذلك يصح لولا أن المصدر هنا هو الإجهاض وأن الأغلبية الغالبة من الأجنة المستخدمة في العلاج اجتلبت بطريق التجهيض الجراحي العمد. فارتفعت أصوات الذين يحرمون التجهيض شرعياً أو إنسانياً. ثم أصوات الذين خشوا أن تشيع تجارة الإجهاض فتحمل المرأة بقصد أن تجهض فتبيع جنينها أو تهبه لعلاج قريب أو مبتاع، وهو منحنى خطير في السلوك الإنساني، فإن الطبيعي أن المرأة إن قصدت إلى الحمل برضاها فإنما تنوي الميلاد لا الإجهاض. وإنشاء الحياة بقصد قتلها مرفوض ولا ريب. وأثبتت الوقائع أن هذه المحاذير قد ولغ فيها من ولغ سواء من الأطباء الذي يعالجون بأنسجة الجنين، أو الأطباء الذين يقترفون الإجهاض أو النساء بائعات أجنتهن». وقد مضى د. حسان حتحوت في طرح هذه القضية، فعرض الضمانات التي حاولت بها الهيئات الطبية ضبط الممارسة، وتحدث عن الإجماع القائم على وجوب معاملة اللحم البشري بالاحترام اللائق به، «فلا يُهان ولا يُلقى في القمامة وإنما يستر ويوارى كما يليق بالإنسان»،

وأوجز المناقشات حول استخدام الجنين الذي يخرج بالإجهاض التلقائي، ثم أوضح أن أرض الواقع شهدت عجباً «فهناك تجارة واسعة في الأجنة المجهضة» تتم في الخفاء. وقد ثارت ضجة حين لاحظ قسيس وجود صندوقين قرب كنيسته ففتحهما ليجد فيهما عدة مئات من الأجنة البشرية المحنطة، وكانا يخصان مركز أبحاث مجاور، وتابع الأمر صحفي فكشف عن وجود اتفاق تجاري مع متعهد في إحدى دول جنوب شرق آسيا ليشحن دفعات من الأجنة لزوم الأبحاث إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

مثل آخر على موضوع «الفقه الطبي» استخدام الوليد عديم الدماغ مصدراً لزراعة أعضاء حيوية. فهناك مواليد لا دماغية يولد الواحد منهم وليس له قبو رأس ولا فصان مخيان، وإنما له جذع مخ يقوم على الوظائف الحيوية الأساسية من دورة دموية وتنفس. وهو مقضي عليه بالموت. فهل يمكن أن يؤخذ عضو منه لزرعه في طفل آخر محتاج إليه؟ ويبرز الجانب الفقهي حين يفكر الطبيب بأخذ العضو والمولود لم يمت بعد. وتثور مسألة متى يعتبر الإنسان ميتاً؟ كما تثور فكرة شيطانية لإقامة مزارع تفريخ أجنّة عديمة الدماغ لاستخدامها وذلك بأن يتم التلقيح تحت تأثير مادة كيميائية تنتج هذه العاهة» على حد قول د. حسّان حتحوت.

واضح أن الموضوع حيوي وله جوانبه الدينية والخلقية والقانونية والاجتماعية، وليس كما تصور البعض من أنه مجرد «مناقشات بيزنطية» حين سمعوا عن الفقه الطبي ولم يتابعوه عن كثب. وقد وفت الندوة الموضوع حقه وفق نظام دقيق. فكان الأطباء يعرضون بحوثهم في أحد الموضوعات الثلاثة، ويردون على اسئلة الفقهاء والعلماء الحاضرين ويتناقشون فيما بينهم طبياً، ثم يأتي دور الفقهاء وهم يعرضون الجوانب الفقهية له ويدور الحوار مستهدفاً الوصول إلى رأي يطمئن الجميع إليه من موقع انتمائهم لحضارتنا العربية الإسلامية المؤمنة التي أسهم في تشييدها المسلمون والنصارى من أهلنا. وقد أسعدني أن يشارك في هذه الندوة الفقهية الطبية الإسلامية طبيب من إخوتنا النصارى شارك في تقديم بحث قيّم.

تأملت طويلاً في الأحاديث التي طرحت في هذه الندوة، ووقفت بخاصة أمام غنى تراثنا الفقهي المتصل، واتساع آفاق علمائنا الاجلاّء المشاركين، وشجاعتهم في إبداء الرأي والتيسير على الناس. وقد سجلت قول أحدهم وهو يردد ما تعلمه من أشياخنا «إنما الفقه الرخصة من ثقة، أما التشديد فيحسنه كل أحد». وسجلت استشهاد أحدهم بقول الإمام الشاطبي في الموافقات «على العالم أن ينظر في مآل فتواه». وسجلت وسجلت، وحملت معي بحوث الندوة لأعاود قراءتها. ووقفت أيضاً أمام متابعة الأطباء لما يجري في عالمنا وتوجههم للإسهام في إسعاد الإنسان من موقع انتمائهم لحضارتنا العربية الإسلامية واعتزازهم بها ومن موقع إيمانهم بالدين والتزامهم بتعاليمه.

كان مما أسعدني أن أجد البحث يعنى بتحديد المصطلحات، وأنا من مدرسة تحرص على ذلك. والتحديد لا يتناقض مع القول الشائع بين علماء حضارتنا «لا مشاحة في الاصطلاح» بل ينطلق منه. وقد تردد خلال البحث مصطلحات العقل والفؤاد والقلب والروح والنفس، وبدا واضحاً ضرورة وضوح مدلول كل منها في حضارتنا وفي الحضارة الحديثة اليوم كيلا يحدث خلط بسبب عدم التحديد. وكم كانت غنية تلك المناقشات التي دارت حول الروح بمناسبة الحديث عن الجنين والموقف منه في أيامه الأولى وهو يتطور من نطفة إلى علقة إلى مضغة مخلّقة وغير مخلّقة، ثم في نشأته الأخرى حين يتكون العظم ويكسى باللحم ليخرج عند الميلاد طفلاً.

لقد ألحت علي وأنا أُشارك في هذه الندوة آيات بيِّنات، فأشرت إليها وأنا ابدأ الجلسة التي شرفت بإدارتها حامداً الله الذي خلق الموت والحياة ليبلونا أينا أحسن عملاً، والذي خلق الإنسان من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ليبين لنا ويقر في الأرحام ما يشاء، والذي أرسل رسوله داعياً إلى الله بأمره وسراجاً منيراً. واخترت في مداخلتي أن أتحدث عن النظرة العلمية الجديدة التي بدأت تنتشر في الغرب متجاوزة تلك التي كانت أسيرة «المادة» في معرض التفريق بين

الدماغ والعقل وأشرت للكتاب القيم الذي أصدرته دار المعرفة في سلسلة كتاب المعرفة بعنوان «العلم في منظوره الجديد»، واستشهدت بما جاء فيه من «أن الدماغ مقر الإحساس والذاكرة والعواطف والقدرة على الحركة ولكنه فيما يبدو ليس مقر العقل أو الإرادة. . وإذا كان العقل والإرادة غير ماديين فلا شك أن هاتين الملكتين ـ على حد تعبير اكلس ـ لا تخضعان بالموت للتحلل الذي يطرأ على الجسم والدماغ كليهما». وكانت إشارتي إلى حمد الله الذي خلق الموت والحياة للتذكير بموقف من الحياة والموت يتضمن في طياته التسليم بحقيقتيهما واحترامهما واعتبار الحياة نعمة وإدراك عامل الزمن فيها، ومن ثم الانسجام مع مختلف أطوارها من نماء إلى حداثة إلى شباب وكهولة وشيخوخة، وأن يحكم هذا الانسجام التطبيب، فلا تجري محاولة القفز على الحقائق وإنما يكون التركيز على معالجة الأدواء ضمن هذه النظرة.

توصلت الندوة الفقهية الطبية الخامسة إلى مجموعة توصيات ضمنتها بيانها الختامي، ويمكننا أن نأخذ فكرة عن هذه التوصيات بالوقوف أمام ما جاء بشأن زراعة خلايا المخ والجهاز العصبي. فهناك أولاً تحديد للموضوع والغرض من هذه الزراعة ومصدر الخلايا التي يتم زرعها، فإذا كان المصدر هو المريض نفسه من غدته الكظرية «فليس في ذلك من بأس شرعاً» وفيه ميزة القبول المناعي، لأن الخلايا من الجسم نفسه» أما إذا كانت الأنسجة من خلايا حية من مخ جنين باكر فلا مانع شرعياً إذا كان أخذها من جنين حيواني. وهو حرام شرعاً إذا تم أخذه من الجنين الإنساني في بطن أمه بفتح الرحم جراحياً لأن هذه الطريقة تؤدي إلى إماتة الجنين، ويُباح شرعاً إذا كان الإجهاض تلقائياً أو إجهاضاً مشروعاً لإنقاذ حياة الأم. ولا بأس شرعاً إذا كان مصدر الخلايا الاستزراع في مزارع لخلايا المخ إذا كان المصدر للخلايا المنزرعة مشروعاً.

لعل من أهم ما أثمرته الندوة فضلاً عن توصياتها هذا التفاعل بين المشاركين فيها. وكم أسعدني أن أستمع إلى ما يطرحه اثنان من فقهائنا الموريتانيين الذين

تمثلوا تراث الفقه المالكي الشائع في المغرب. وأن ألاحظ أيضاً ثمار التفاعل بين الأطباء والفقهاء.

لقد سنحت لي أيضاً فرصة التعرف على بعض الجهود التي تُبذل في هذا المجال. وكانت زيارة مركز الطب الإسلامي بالكويت موحية، على عدة صُعد. فهناك صعيد التطوع في إقامة بناء ومشروع. وهذه المبادرات كانت الأساس في ازدهار حضارتنا وأصبحت من أسس ازدهار حضارة الغرب. وهناك صعيد الفن المعماري للبناء وفيه استلهام للفن العربي الإسلامي وتطوير عصري يمثل إضافة. وهناك صعيد العلم الطبي وفيه محاولة تستحق أن تتابع. وهناك صعيد تعميم العلم، والمنشورات العلمية التي تضم ما طُرح في الندوات فيها خير كثير.

إن الفكرة التي تلح عليّ وأنا أتابع ذلك كله هي أننا في مرحلة انبعاث حضاري هذه بعض صورها، وهذه الصور تمثل الجانب المشرق من واقعنا الذي لا يزال يعاني من وجود جانب مظلم فيه. والمطلوب أن نتابع الجهد كي نبلغ بهذا الانبعاث الحضاري مداه في مختلف الحقول والموضوعات ومنها موضوع الفقه الطبي.